أدبية النص وجدلية

اللفظ والمعنى

د . عبد الحميد معيفي

جامعة الطارف

ملخص:
نحاول في هذا المقال السباحة في عالم الأدبية ومعرفة بعض أعلامها الذين أصلوا له تأصيلا أصيلا وحقيقيا مع البحث في علاقة الفظ بالمعنى ودورهما في بناء هذه الأدبية ، فقد لمعت في سماء النقد الأدبي العربي عدة اسماء اعلام ، و كل عَلَم منهم ترك لنا إرثا ننهل منه ، و نرتكز عليه في دراساتنا النقدية و الأدبية ، ونحتكم لأقواله وآرائه ، فهي تبقى المرشد و الدليل ،والمسار الذي يوصلنا دوما إلى برّ الأمان.

Abstract:
In this article we try to swim in the literary world and to know some of its flags, which have a genuine and real originality with the study of the relationship of the rudeness of the meaning and their role in building this literary , Has already information shone in sky of the literary Arabic cash several names, and all science from them left for us inheritance drink from him, and concentrate on him in studies us monetary and literary, and sculpt you for his statements and his opinions, so it remains the guide and the evidence, and the course who arrives us safety turned to.

الكلمات المفاتيح :
الأدبية ، اللفظ ، المعنى

أولا / الأدبية في النقد الأدبي حتى القرن الرابع الهجري

تمهيد

إن القارئ يعرف مكانة النقد حينما يتأمل الدراسات و الأقوال القديمة ،التي كانت عديدة ومتنوعة ، حيث اهتم أصحابها بالأدب ،وخاصة الشعر منه ، علما أن المصطلح لم يكن يهمهم بقدر ما كانت تهمهم جودة الكتابة الأدبية ،والوصول بها إلى مستوى عال من الفنية والإبداع ،وكل الدراسات الأدبية في ذلك الزمن كان أصحابها يسعون إلى رقي الكلمة للوصول بها إلى أرقى مستويات الإبداع ،ومن بين أعلام النقد والأدب نجد الجاحظ (ت255هـ) ،وكذلك قدامة بن جعفر (ت337هـ) ،وأعلام أخرى كانت لها كلمتها في النقد الأدبي في تلك الفترة ،ومنهم بشر بن المعتمر"ت210هـ" ،والأصمعي "ت216هـ" ،وابن سلام الجمحي "ت231هـ" ،وكذلك بعض الآراء في العصر الجاهلي .

1- الأدبية عنـد الجاحظ (ت 255هـ)

ركّز الجاحظ و اهتم بالكتابة الأدبية داعيا إلى الإبداع ،مبينا و مبرزا السبيل إليه ، و هذا في كتابه البيان و التبيين ، و أقواله في هذا الشأن كانت البذرة الأولى في ظهور الأدبية العربية ؛لأن هناك من تأثّر بكتاب أرسطو طاليس الذي يركز فيه على عنصر المحاكاة، والكثير من نهج النهج نفسه ،وهناك من أعجب بنقد أرسطو ،لكنه نهج نهجا آخر ،وفي الأخير كل السبل ،والمسالك تصب في بحر الأدب ، إنه البحر الذي اتعب النقاد و الأدباء وجعل كلا منهم يحاول جاهدا الوصول إلى شيء لم يصل إليه غيره ، و بالفعل تسنى للبعض الوصول إلى الغاية المبتغاة من وراء ذلك .

و نحن كدارسين علينا إذا أردنا مواصلة الطريق أن نستند إلى ماضينا المشرق ؛لأن الماضي هو أساس بناء الحاضر و المستقبل ، ومن لا ماضي له فلا حاضر و لا مستقبل له ونجد الجاحظ يتكلم في أمر الإبداع وكيفية الوصول إليه ، و هذا هدف كل كاتب أو شاعر حين يقول: « إن الشيء من غير معدنه أغرب ،

وكل ما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، و كلما كان أطرف كان أعجب ، و كلما كان أعجب كان أبدع »[1]

إن الجاحظ في قوله هذا يحث طبقة معينة وهي طبقة الشعراء ، و التي في نظره طبقة راقية جدا بمستواها الإبداعي .أي إنها متميزة ، فالشاعر عنده و كأنه ليس ملك نفسه ، فهو ملك لما يكتبه و يبدعه ، والجاحظ من النقاد الذين يؤكدون فكرة الإلهام الشعري ،وأن الشاعر إنسان خارق ،يأتيه شيطان الشعر ، فالجاحظ من مناصري عمر بن كلثوم ،الذي زعم بأن له شيطانا يلهمه كلما أراد قول الشعر ، و رغم أن لكل ناقد في ذلك العصر نظرة إلى الأشياء ،وقد تخالف نظرتنا نحن الآن .إلا أنهم بذلك أرسوا قواعد للأدبية .

وحينما نعود إلى كلام الجاحظ نجد فيه توازنا ،حيث أنه يحث على الإتيان بالشيء الغريب و البعيد و العجيب و النادر و الطريف ، و هذه المواصفات التي ينادي بها لصيقة بالوهم أي الوصول بالخيال إلى أبعد نقطة من نقاطه ، و أبعد مراحله التي من النادر الوصول إليها ، إلا عند عمالقة الشعر ،فقد نجد هذا الوصف ينطبق على أشعارهم ، وربما نجد في بعض أشعار المتنبي و أبي فراس الحمداني ، و غيرهم هذه الأوصاف النادرة .

و من هذا نرى أن في كلام الجاحظ مرامي بعيدة جدا ،والشاعر في نظره من يعيش في الخيال ، ينطلق منه و يعود إليه ، فتكون في شعره أبعاد عديدة ،وأوجه مختلفة مما يصعب فهمه أو معرفة مقصده ،إلا باللجوء إلى القواميس و المعاجم ، ويؤيد الجاحظُ بشرَ بن المعتمر (ت210هـ) في قوله الذي يقدمه كنقد و نصيحة يتوجه بها إلى كل من يريد أن يقول الشعر و في حالة كتابته قائلا : «فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة،ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة ، فلا تعجل ، و لا تضجر و دعه بياض يومك أو سواد ليلتك و عاوده عند نشاطك ، و فراغ بالك فإنك لا تعدم الإجابة و المواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرف »[2]

نرى أن " بشر بن المعتمر"، و "الجاحظ " يؤكدان على أن الشعر الصحيح و السليم ما جاء على سجيته و طبيعته دونما تكلف ، فالتكلف في نظرهما يخون الشاعر ، و إن لم يخن فهو لا ينتج شعرا ، وإنما الشعر عندهما هو الذي يقال في هدوء و ارتياح من بعد عناء و تعب ،ويأتي كذلك من بعد صفاء الذهن من كل أعباء الحياة ،سواء أكان ذلك في الليل أم في النهار . أي أنه لا إرغام في قول الشعر ، بل الهدوء و الراحة النفسية و الاستعداد التام لقول الشعر هو الأهم ، و لكي يصل الشاعر إلى الأدبية الحقيقية ، لا بد أن يكون راض عن ما يكتب ، وعن حالته قبل الكتابة ، ولا يكون مضطربا ، و لا قلقا ، فما على الشاعر في رأييهما ،إلا الصبر و التريث كي ينتج شعرا لائقا.

و يؤيد الجاحظ كلام بشر بن المعتمر بما قاله عمر بن الخطاب ؛الذي يُروى عنه أنه تكلم عن الشعر قائلا:« خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته»[3]، و هذا هو الشعر الذي يشجع الجاحظ على قوله ، الشعر

الذي نحتاجه في الوقت المناسب لا نزيد عنه ؛لان الزيادة في غير موضعها ،إما أنها تُخرج الأبيات عن سياقها و هدفها ،وإما أنها تضيف شيئا للمعنى فتفسده ،فيلتبس الأمر على المتلقي و لا يصل إلى المعنى الحقيقي ،وإما أنها لا هذه ،ولا تلك ،وإنما تكون زيادة على الحاجة ، فتنقص من قيمة الشاعر فتُحسب ثرثرة لا طائل منها دون أن تمس أو تنقص من الأبيات ، و لكنها تسجل كعيب على الشاعر في حد ذاته.

ويبقى الشعر الذي يؤيده الجاحظ ،ويشجع على قوله ، هو الشعر البعيد المرامي و الأهداف و الغايات ،والغريب و النادر والطريف و الفريد في لفظه و في معناه ، الذي يأتي دونما تكلف ،ولا إرغام ، يأتي عن فطرة و سجية ، دونما زيادة مخلة ، و إنما يكون بقدر الحاجة .

2- الأدبية عند قدامة بن جعفر (ت337هـ) :

حينما يُذكر قدامة بن جعفر يتبادر إلى ذهن القارئ أو المتأمل أو السامع تعريفه للشعر و هو تعريف اُشتهر كثيرا ؛لأنه تعريف موجز ، و لكنه في حقيقة الأمر لم يكن تعريفا شاملا للشعر ، فقد عَرّفَ جزءا من الشعر فقط ؛ لأنه اقتصر على ثلاثة عناصر فقط ومميزات يتميز بها الشعر، إضافة إلى العديد من المميزات التي لم يشملها تعريفه ، لذلك فالشعرية عنده نستطيع أن نقول : بشيء من التحفظ بأن كل من يقول بيتا يضم العناصر التي ذكرت في تعريفه ،فهو شاعر ، و بيته فيه شعرية ، و تعريفه يقول فيه « الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى »[4]

إن تعريف قدامة بن جعفر يحصر الشعر في الوزن و القافية و المعنى ، و الشعر بهذه العناصر الثلاثة لا نراه يرقى إلى مستوى الأدبية ، فقد يكون ما يقال بهذه الكيفية ــ من الشعر أو بالأحرى من الأدب الفني أو الشعر الذي يصل إلى الشعرية ــ يضم عناصر عديدة منها ما ينتمي إلى النص ــ أي إلى إطاره الداخلي ــ و منها عوامل خارجية ،وهذا التعريف ركّز على ثلاثة عوامل داخلية و أهمل عوامل عديدة.

كما نجد الناقد قدامة بن جعفر يؤيد قول " بن سلام الجمحي (ت231هـ) "المتأثر بأستاذه " الأصمعي (ت216هـ) ، و اتفاقه معه في مصطلح " الفحولة" ،التي تمثل عند " الجمحي و الأصمعي" وصول الشاعر إلى قمة العطاء الشعري . أي وصوله إلى الأدبية وكذلك هي دليل على قوة الشاعر و مقدرته الكبيرة على قوله للشعر و إجادته إجادة كاملة و متكاملة .

و تَأثُّر ابن سلام الجمحي " بأستاذه " الأصمعي " أوصله إلى تأليف كتابه المعنون بـ " طبقات فحول الشعراء " و من العنوان نرى أن الشعراء يفضل أحدهم عن الآخر بمميزات تمكنه من الارتقاء إلى طبقة أعلى ، و كلّما تعددت الميزات تعززت طبقة الشاعر ،وبهذا أخذ قدامة ابن جعفر بتعريف ابن سلام الجمحي الذي اعتبر " الشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم و الصناعات منها ما تثقفه اليد ،ومنها ما يثقفه اللسان ..."[5]

و تعريف الجمحي يقترب من تعريف قدامة بن جعفر و كل منهما يدعوا إلى النية و القصد في قول الشعر،وهما عاملان يضعفان من قوة الشعر و من الكتابة الأدبية عامة ،وفي هذه الحالات يكون الشاعر مضطرا إلى كتابة الشعر

لأجل مناسبة معينة ،كما أنه لا يأتي عفويا ، فتغلب عليه الإنشائية و السطحية التي تبعده عن الأدبية ؛لأن الشعر قبل أن يكون صناعة كما جاء في كلام الجمحي ، و قبل أن يكون وزنا وقافية ،هو تجربة و هذه التجربة إما مؤلمة أو مفرحة ،إضافة إلى العوامل الأخرى التي هي من مقومات الشعر ، و بذلك ينُتج الشاعر شعرا لا يرقى إلى مستوى الأشعار التي تفيد و تمتع في الوقت نفسه ؛لان جانب المتعة يتحقق بالخيال ، وهذا العنصر لم يُذكر لا في تعريف الجمحي ،ولا في تعريف قدامة بن جعفر.

و من هذا نصل إلى أن التعريفين ينطبقان على النظم أكثر مما ينطبقان على الشعر ، و ألفية ابن مالك دليل على ذلك ، فهي موزونة و مقفاة و لها معنى ، و لكنها لا تُعد من الشعر إنما هي تبقى في إطار النظم ؛لأنها عقلية ، أما الشعر فإنه يخاطب الوجدان أكثر مما يخاطب العقل ،فهو مفعم بالصور « و يرتبط الشعر مع البلاغة : فالشعر هو اللغة التي تعمل على استخدام وافر للصور المجازية و اللغة التي تطمح إلى تحقيق أغراض محددة بقوة »[6] ،ويلعب المجاز الدور الرئيس في جعل الكلام يرقى إلى مستوى الشعرية ،وهذا لم يتكلم عنه الجمحي ،كما أن قدامة بن جعفر لم يتعرض إليه في الأدبية للشعر.

و حين نتكلم و لو قليلا عن العصر الجاهلي سوف نركز كلامنا على الشعراء الذين صاروا نقادا في ذلك العصر ، و صار الشعراء يحتكمون إليهم ،ونجد من بين هؤلاء " النابغة الذبياني" الذي يُعتبر من فحول الشعر انتقد و عرف الخطأ ، و بعد ذلك صار ناقدا كبيرا حينما دخل يثرب ، و بينوا له بطريقة الغناء بأن في أبياته إقواء ، ففطن لذلك ،وقال : « دخلت يثرب و في شعري شيء ، و خرجت و أنا أشعر الناس. »[7] ،و من هنا نرى أن مستوى الشعر يرتفع ؛لأن حركة النقد مستمرة ،وإن كان النقد في ذلك العصر انطباعيا ،إلا أنه كان في عمومه صائبا و عادلا .

كما أن حسان ابن ثابت غضب ذات مرة من النابغة حينما بيّن له مواطن الجودة في شعر منافسه ،ومواطن الإخفاق في شعره ،فاقتنع حسان بن ثابت بحكم النابغة الذبياني ورغم ذلك خرج من المجلس ، وأعجب النابغة الذبياني بشعر الخنساء و مدحه كثيرا .

إن هذه الأحكام و غيرها جعلت الشعر في العصر الجاهلي يصل إلى أعلى مراتبه من قوة العبارة ،ودقة الوصف ،وسلاسة الأسلوب ،وتعدد الصور،وعمق الدلالة ،وتكثيف الرموز، وهذا ما جعل الشعراء يتنافسون للوصول إلى ذروة الإبداع الشعري، ويحتدم التنافس فيما بينهم ،وبذلك كانت جل أشعارهم في مستوى الأدبية التي يناشدها النقاد و يسعون إلى تحقيقها كما أن شعراء العصور الأخرى تأثروا بهذا النقد و التوجيه الذي أثمر عندهم و سنأخذ بعضا من الأبيات على سبيل التمثيل ،التي نرى بأنها في الاتجاه الذي دعا إليه النقاد في ذلك الوقت ،وفي تلك الفترة ،وهذا بيت للمتنبي ،وهو من العصر العباسي الذي نراه يوافق ما جاء به " بشر بن المعتمرت 210 هـــ " الذي تكلم عن السجية و السليقة و عدم التكلف في قول الشعر ،وهذا البيت و أبيات أخرى نرى بأن فيها من

الليونة و السلاسة الفطرية و السجية ما يدعونا للاستشهاد بها حين يقول[8]:

و إذَا كانت النفوسُ كبارًا *** تَعبت في مُرادهَا الأجسامُ

فهذا البيت نرى بأنه قيل من جراء التعب في هذه الحياة ،وهذا التعب يشعر به أصحاب النفوس الحالمة ،أصحاب النفوس العظيمة ،والأهداف الكبيرة ،فجسم الإنسان لا يتعب من أجل تحقيق هدف بسيط ،فالنفوس الكبيرة لا ترضى إلا بالأهداف الكبيرة ،لذلك فالمتنبي قال هذا البيت بحسب السياق فجاء تلقائيا من غير تكلف .

و برغم أن المتنبي له طموحات في تولي الأمور و منها الإمارة ،إلا أن هدف البيت يظهر عاما و ليس خاصا ،لذلك فهو قريب من المتلقي ،وزيادة على ذلك يحمل رسالة الأمل و المضي قدما إلى مراحل التفوق و النجاح .

و كذلك نجد أشعارا كثيرة و عديدة بعيدة عن التكلف منها ما يعبر عن عذاب الأفراد و منها ما يعبر عن عذاب الأمم ،فنجد المتلقي يتأثر معها بصدق ؛لأنها بعيدة كل البعد عن المصلحة الخاصة والذاتية ،ونجد في العصر الحديث كثيرا من الشعراء أبدعوا و منهم الشاعر أحمد مطر حين يقول[9]:

وطني طفل كفيف

وضعيف كان يمشي آخر الليل

وفي حوزته ماء ، و زيت ، و رغيف

فرآه اللص و انهال بسكين عليه

و توارى بعدما استولى على ما في يديه

حين نتأمل هذه القصيدة و رغم قصرها إلا أنها تعايش واقع الأمة العربية الذي يوحى بالتشتت والضياع ،فكل شيء مسروق منها ،والشاعر يبرز ويعري الحقيقة ،فيكتب بدماء قلبه عوضا عن مداد قلمه ؛لأنه يئن لهذا الوضع المزري الذي تعيشه الدول العربية من الضياع والتشتت ،فتأتي هذه الأسطر في دفق انسيابي موحي و دال خال تماما من التصنع و إثبات الذات .

و بذلك نجد هذه الأسطر،التي كانت في مستوى الأدبية التي نادى بها النقاد في الزمن البعيد الأدبية الخالية من كل غرض دنيوي و أصحابها كتبوا الأدب من أجل الأدب و غايته التطهير و العلو بالنفس .

ثانيا / اللّفظ و المعنى

إن قضية اللفظ و المعنى من القضايا التي اهتم بها العلماء منذ القديم ،وكان جل اهتمامهم منصبا عليها ،فهي حظيت باهتمام الكثير من الدراسيين و النقاد و الباحثين ،وبقي الصراع فيها محتدما و نستطيع أن نقول: بشيء من الحذر بأن الصراع لازال قائما بين أنصار اللفظ من جهة و أنصار المعنى من جهة ثانية ،وتبقى مقولة عبد القاهر الجرجاني المشهورة : بأن المعاني ملقاة في الطريق و لكن المزية تكمن في إلباس هذه المعاني الألفاظ المناسبة .

ومن هنا نجد المعاني في متناول الجميع بحسب كلام عبد القاهر الجرجاني و لكن من الصعب أن نجد لكل معنى اللفظ المناسب أي اللفظ الموحي و الدال الذي ينقل المعنى البسيط إلى منزلة عالية من الإيحاء و التأثير ،ويبقى عدم الفصل أو بالأحرى عدم الجزم بأن المزية للمعنى ،أو المزية للفظ ،ولكن نرى بأن الصورة التوافقية ،التي تجمع العنصرين أو الجانبين معا تكون أفضل ؛لأن المعنى الجيد إذا

ألبس لفظا أقل منه شأنا تنقص جودته كثيرا ،وكذلك اللفظ الجيد إذا تضمن معنى أقل منه درجة أصبح مبتذلا و غير مؤثر ،فالأفضل أن يكون لكليهما المزية و القوة و الإيحاء حتى يكون لهما كبير الأثر و أبلغ و أغزر دلالة و إيحاءا .

كما أن العلماء حينما تكلموا في هذا الشأن ،أوفي هذا الموضوع و صنعوا للفظ شروطا و كذلك للمعنى شروطا " و بحسب قدامه ابن جعفر فإن اللفظ يجب أن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها و عليه رونق من الفصاحة الخالية من البشاعة .أما عيوب اللفظ فهي أن يكون ملحونا أو جاريا على غير سبيل الإعراب و اللغة وحشيا قائما على المعا ضلة التي تسلبه الرونق و الجودة " [10]،و من خلال ما جاء في هذا القول نجد أن اللفظ يجب أن لا يكون غريبا على الأذن بل يجب أن تتقبله ،وبذلك يتقبله العقل ،والقلب يتقبله في مرحلة ثالثة ،وبهذا تكون له مزية الجودة ،فيؤثر في المتلقي تأثيرا كبيرا إذا اختار له الشاعر أو الكاتب أو المتكلم ــ بصفة عامة ــ المعنى المناسب ،وعرف كيف يلبس هذا المعنى اللفظ الذي اختاره فيكون اختياره ملائما و كلامه بقدر الحاجة ،فلا إفراط و لا تفريط ،فليست به الزيادة المخلة ،ولا النقص المعيب،وبهذا يتمكّن من وضع الصورة الحسنة ،"و يشرح الجرجاني نظرية الصورة المجتمعة من اللفظ و المعنى ،ويشبهها بعملية الصياغة أو بالوشي ،و يعتبر أن النظم و التأليف هو الإعجاز في الكلام ؛لأنه يحقق التفاوت تماما مثلما يحدث النظم في الإبريسم الذي يحافظ على العامل العمدي في إنشاء صورة ما " [11].

و نرى أن الجرجاني من خلال هذا القول بين بأن اجتماع اللفظ و المعنى يكوّنان صورة ،وهذه الصورة تمثل النسيج المحكم الذي يبهر الناظر بالتناسق وشدة الالتحام ،وهذا الالتحام يعجز الناظر كي يقوم بمثل هذا العمل ؛لأنه عمل أهل الاختصاص مثله مثل المتكلم الذي يصوغ كلامه صوغا فنيا ،حيث يُبهر المتلقي و يجعله عاجزا على الإتيان بمثل هذه الأقوال ،وهذه هي الصياغة الفنية التي تكون من جراء التحام اللفظ مع المعنى ،التي يسعى إليها الكتّاب و الشعراء ،و كل المتكلمين ،والبلغاء خاصة .

كما أن جل العلماء يؤكدون على عدم الفصل بين اللفظ و المعنى و يرون أن الشعر خاصة لا يصلح إذا سقط عنصر من العنصرين " و ابن قتيبة في تعرضه للفظ و المعنى يقرنهما و لا يفرق بينهما في بناء النص الشعري مما يؤكد نظريته التي تقوم على الأخذ بهما ورعايتهما بلا مفاضلة أو ترجيح " [12]،و بهذا نجد أن ابن قتيبة لا يرفع من شأن اللفظ على حساب المعنى ،ولا كذلك يرفع من شأن المعنى على حساب اللفظ ،و إنما يجعل التوافق هو السائد ،فهو بذلك يرغبنا في الأخذ بهما معا دونما مفاضلة موجها حالة التكاملية بينهما ،فهما يكملان بعضهما البعض و يصبحان كوجهي العملة الواحدة ،فهي لا تكون إلا بهما معا .أي لا يمكن الفصل ؛لأن الفصل في نظره إطاحة بالقول سواء أكان شعريا أو نثريا ،وبذلك يفقد هذا الأخير اتزانه ،لذلك فمن الواجب عنده رعايتهما و المحافظة على التناسق السائد بينهما .

كما يذهب ابن قتيبة أبعد من ذلك و يتكلم عن اللفظ و المعنى كل حدة،فيجد أن لكل واحد منهما المدلول الخاص به " فمد لول اللفظ عنده يريد به النظم و التأليف الممثل في اللفظ المفرد و الوزن و الروي .فحسن اللفظ إنما يعني صحة الوزن ،وحسن الروي و اللفظ المفرد المتخير أي الأسلوب. أما مدلول المعنى فهو يعني الفكرة التي يبين عنها البيت " [13]،و هذه الكلمات تذكرنا بالمقولة التي تقول " إن الأسلوب هو الرجل "،وبالفعل نجد الأفكار موجودة يعرفها العام و الخاص ،وإنما تكمن الأهمية في إلباس هذه المعاني الأثواب اللائقة ،و كثير من الأدباء و الكتاب نجد أن لهم السنوات العديدة في مجال الكتابة لكنهم لم يتمكنوا رغم كل ذلك من اكتساب أسلوب خاص بهم ،وهذه تعتبر مشكلة كبيرة حيث أنك في العديد من المرات تصادفك كتابات لشخص ما ،ولكن عند قراءتها تذكرك بأسلوب كاتب آخر ،وبهذا نجد أن للأسلوب أهمية كبيرة ،وهو يمثل اللفظ المفرد و الوزن و الروي .كما يركز ابن قتيبة على اللفظ من جوانب أخرى لأنه وجد بأنه الكفة الراجحة في هذه المعادلة الثنائية و أن اختيار اللفظ المناسب لا يكون في متناول جميع الكتاب و الأدباء بل يتميز بعض منهم " و نعوت الحسن في اللفظ المفرد عند ابن قتيبة إنما تتمثل في كثرة الماء و الرونق و السهولة و حسن المخارج والمطالع و المقاطع ، وقربها من إفهام العوام و بعدها عن الاستكراه والتعقيد ،وما إلى ذلك من أمور الغموض والإبهام "[14]

وهذا اللفظ الذي يتكلم عنه ابن قتيبة ،و يقدم أوصافه و ليس من السهل العثور عليه أو تناوله من طرف عوام المتكلمين و إنما يخص هنا الفئة التي تمتاز بسرعة و دقة الوصف من الشعراء و الكتاب الكبار،الذين أوصلتهم تجاربهم إلى الإتيان بمثل هذه الألفاظ بيسر و دون عناء ؛لأن اللغة أصبحت عندهم طيّعة منقادة ،فتأتي أشعارهم سلسة عذبة رقراقة ،تحمل معان سامية موحية و دالة في الوقت نفسه ،وبهذا فهي تصنف ضمن الكتابات الناضجة التي تمثل منعطفا في الحياة ،وهو إيجابي بطبيعة الحال و القارئ يستفيد و يستمتع بما يقرأ أو يسمع ،وهنا يحقق اللفظ و المعنى الدور الأساس الذي يهدفا إليه معا .

كما أننا نجد أصحاب هذا الاتجاه يشجعون على اللفظ المتخير و المتميز ،و كذلك يبحثون عن المعنى الشريف و الدال ،و" لم يكن ابن المعتز من أنصار اللفظ مقابل المعنى و لا من أنصار المعنى في مقابل اللفظ ،إنما كان يلح على الجمع بين الإثنين في مجال محاسن الشعر و الكلام .فقد كان يجد أن محاسن الشعر كثيرة و لا يستطيع إنسان أن يحيط بها " [15]،و من خلال وجهة نظر ابن المعتز في هذا القول تبين لنا و كأنه يقول: بأن الشعر له مميزات عديدة و محاسن كثيرة و أولها الجمع بين اللفظ و المعنى ،وهذا التلميح منه نكاد نجزم بصحته ؛لأن الشعر فعلا لا يكون شعرا قويا و مؤثرا إلا إذا جمع اللفظ القوي و المعنى الموحي و الدال .

وكذلك النثر الفني لا يقل أهمية عن الشعر الحقيقي ؛لأن بهما حالة تجعل المتلقي ينجذب ،ويعجب بالقولين سواء أكان شعرا أو نثرا فنيا " ...فيجب لذلك أن يتخذ الفن الكلامي معايير ،لئلا يكون التعدد الاحتمالي للمعنى مؤديا إلى

الانغلاق و الغموض ..." [16] وهذا يعود إلى الشاعر في حد ذاته أو إلى الكاتب فلكل أسلوبه الخاص ،فمن المتكلمين من يكون أسلوبه غامضا مثل " أدونيس " ،ولكن يكون محبوبا من طرف الكثيرين ،ومنهم من يكون أسلوبه من السهل الممتنع مثل " نزار قباني " .

وكل واحد من الشاعرين يتّبع طريقه معينة في المزاوجة بين اللفظ و المعنى ،ولكل منهما كذلك طريقته في انتقاء العبارات الدالة و الموحية ،التي يستطيع أن يعبر بها بشكل مغاير عن الآخر تماما ،مع أنهما يحدثان المتعة و الفائدة معا .وكلما كان الفنان واعيا بما يقدمه كان أكثر واقعية و أكثر مصداقية و أكثر تأثيرا على المتلقي ؛لأن هناك شيئا من المعاينة أو بالأحرى دراسة مسبقة للموضوع ،وللصياغة المتمثلة في التحام اللفظ مع المعنى " و هذا يدل على صلة الفنون بالانفعالات الإنسانية أو بقوى النفس و دورها في تأكيد الوعي بحاجة الإنسان إلى الفن للتعبير عن مجموعة انفعالاته و تصوراته و رؤاه " [17]،و الفنان ليس إنسانا عاديا ،بل يرى الأشياء بشكل مغاير لما يراه الآخرون ،فهو يتعامل مع الأشياء بإحساسه ؛لأنه مطبوع على ذلك ،فالطبع من شأنه أن يكون مقوما كبيرا في جعل كلام الفنان و خاصة الشاعر مؤثرا " فإن سلامة اللفظ يتبع سلامة الطبع ،ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقه .و أنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك و أبناء زمانك ،و ترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ معقد الكلام و عر الخطاب حتى أنك وجدت ألفاظه في صوته و نغمته و في حدسه و لهجته "[18] .

إذا فالطبع السليم يولد لفظا سليما و مستقيما و صحيحا ،فمن كانت له قدرة على ابتكار اللفظ الجيد بإمكانه أن يأتي بمعنى مناسب للّفظة ،ويكون كلامه مؤثرا و دالا ،و اللفظ الجيد لا يأتي عن تكلف بل يأتي عن سليقة و ليونة ،فيكون مطواعا عند صاحبه و من الألفاظ التي تحمل دلالتها ،وألفاظ تحتاج إلى دلالة و الجرجاني يعطي الكلام وجهين أحدهما واضح ،والآخر مبهم يحتاج إلى تفصيل و شرح يقول :" الكلام على ضربين ضرب أنت تصل فيه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ،وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد ...و ضرب أخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة .ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض و مدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة و التمثيل "[19]ومن الأفضل والأحسن أن تصل إلى الغرض بدلالة اللفظ والمعنى معا ،وكما تجدر الإشارة إلى أنه يمكن في بعض الحالات أن يتجاوز القارئ المعنى الأول إلى معنى آخر وهو معنى المعنى ، وفي هذه الكتابات تجد اللغة الرامزة ظاهرة على سطح اللفظ ،مما يجد المتلقي صعوبة في الوصول إلى الغرض المرغوب فيه .

ومنه نجد الكتابة الأدبية تنجح ــ سواء أكانت شعرية ،أم نثرية –بتآلف اللفظ مع المعنى،والكثير من الكتابات لشعرائنا أو لكتابنا حققت الجمع بين الطرفين ؛لأن في جمعهما محافظة على قوة العمل ،وتماسكه الداخلي والخارجي ، وكذلك مدى عمق إيحائه، وسنقدم

بعضا من الأمثلة ، التي نراها قد جمعت بين الطرفين في قصيدة بدر شاكر السّياب "الأسلحة و الأطفال" حين يقول[20]:

لمن كان الرصاص؟
لأطفال كوريا البائسين
وعمال مرسيليا الجائعين
وأبناء بغداد و الآخرين
إذا ما أرادوا الخلاص
حديد
رصاص
رصاص
رصاص

إن المتأمل لهذه الأسطر أول شيء يشده لها و هي طريقة الوصف للوضع المؤلم الذي يحز في النفس و الترتيب في عملية السرد و الانتقال من حالة إلى حالة فهذا كله يُثير أعماق المتلقي و يتفاعل تفاعلا وجدانيا مع هذه الأبيات ،و كذلك يجذبه الإيقاع الخارجي الذي يبدأ ،و تظهر جليا القافية وحرف الروي الصاد في كلمة الرصاص من جهة و كلمة الخلاص من جهة ثانية و التنقل بينها مع حرف النون في : البائسين ، الجائعين ، الآخرين والعاملان يشدان وجدان و عقل و سمع المتلقي لأنهما جعلا الأبيات لحمة واحدة غايتها تحقيق هدف واحد ،وهو الإفادة و المتعة في الوقت نفسه .

قائمة المصادر المراجع :

[1] ــ الجاحظ: البيان و التبيين ، تحقيق و شرح ، ع السلام هارون، القاهرة، مصر، ج1،1961، ص 89

[2] ــ الجاحظ (أبو عثمان بن حجر): البيان و التبيين : ص138

[3] ــ المرجع نفسه: ص100

[4] ــ قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، القاهرة، مصر،1963،ص10

[5] ــ ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمد شاكر ، دار المعارف القاهرة ، مصر ، ص7.

[6] ــ جوناثان كالر: النظرية الأدبية ، ترجمة : رشيد ع القادر ، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط1،2004،ص85

[7] ــ قصي الحسين: النقد الأدبي و مدارسه عند العرب، دار مكتبة الهلال، بيروت، دار الشرق، جدة،ط1،2008،ص13

[8] ــ ديوان المتنبي : تحقيق محمد خدّاش ، دار الغد الجديد ، ط1 ، القاهرة ، مصر ، 2013 ، ص 219 .

[9] ــ أعذب قصائد أحمد مطر : سارة حسن جابري ، دار العوادي ، عين البيضاء ، الجزائر ، 2014 ، ص 64 .

[10] ــ قصي الحسين : النقد الأدبي عند العرب واليونان : ص 353 .

[11] ــ المرجع السابق : ص 440 .

[12] ــ فخر الدين عامر : مصادر التراث في كتب التراجم الأدبية (دراسة و نقد و تحليل) ، دار أميرة للطباعة ، ط 1 ، القاهرة ، 2000 م ، ص 73 .

[13] ــ قصي الحسين : النقد الأدبي عند العرب واليونان ، ص 331 .

[14] ــ المرجع نفسه : ص 331

[15] ــ قصي الحسيني : النقد الأدبي عند العرب و اليونان : ص 347 .

[16] ــ محمد كريم الكواز : علم الأسلوب (مفاهيم و تطبيقات) ، ط1 ، بنغازي ، الجماهيرية الليبية ، 1426 ه ، ص 95 .

[17] ــ حسن عليان : الخطاب النقدي الغربي (ابن خلدون ، إحسان عباس ، البنيويون) دار مجدلاوي للنشر و التوزيع ، ط1 ، عمان ، الأردن ، 2008 ، ص 54 .

[18] ــ على بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المسي و خصومه ، يحقق محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي ، ط2 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر ، 1951 ، ص 181

[19] ــ ع القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تحقيق السيد محمد بسير رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، 1981 ، ص 202 .

[20] ــ محمد الهادي الطرابلسي : تحاليل أسلوبية ، دار الجنوب ، ط 2 ، تونس ، 2015